

عيسى بن عبد الوهاب القطامي

١٢٨٧ - ١٣٤٧ هـ

من مصادر هذه الترجمة الفاضل يوسف أحمد أبناء المترجم وبعض أصدقاء الفقيد ، واللهجات من محفوظات الأديب عبد المنعم عيسى

والشواطيء ، فتارة الهند ، وأخرى سواحل أفريقية ، ومرة اليمن ، مطبقاً دراسته التي استفادها من الرابطة الذين عمل معهم ، وما يقرأه من كتب المتقدمين ، وما حصل بيده في ذلك الوقت في هذا الفن ، على العمل . ولتقصيه وتوسعه في البحث ، واستعداده لذلك ، انفرد بين الرابطة الماهرين بالميزة ، فطلب منه زملاؤه أن يؤلف في البحر كتاباً يكون لهم معلماً ومرجعاً . فصعد بما طلبوه ،

ولد في الكويت ، وكان صغيراً حين مات أبوه عنه ، فأدخلته والدته الكتاب فتعلم القرآن والكتابة وعمره تسع سنوات ، وخرج من الكتاب فركب البحر في أول سفرة مع خاله ثنيان الغانم - والد الوجيه الحاج ثنيان الغانم - وبعد ذلك مع خاله إبراهيم ، فأخذ معرفة البحر عنهما وسنه أربعة عشر عاماً ، ثم سافر بعد هذا دليلاً خريئاً مستقلاً في سفينة أحمد الناصر ، واستمر يحوب البحار

ما يطلب منه سواء بصفة رسمية أو غير رسمية ما دام في أداء هذا العمل أو ذاك خدمة وطنية للبلاد .

وقد أعار بيت الكويت الحياة الأدبية كثيراً من اهتمامه ، سواء بين أبنائه الطلبة أو غيرهم من الكويتيين فقد اشترك الشباب الكويتي المثقف في تحرير نشرته التي احتلت مكانها اللائق في المجتمع الكويتي . وشجع البيت الأدباء الكويتيين على الانتساح الأدبي ، وأبدى استعداده لنشر ما يقدم له من كتب تستحق النشر ، مادام في نشرها مساهمة في النهضة الأدبية المرتقبة للبلاد .

والآن وقد بدأت ثمار البيت تنضج ، وأصبح على أبواب تخرج فريق من أبنائه . فاننا لنغبط أشد الغبطة لما استطاع البيت أن يحققه لوطننا العزيز من رسالة . . وإننا لعلّ يقين أن هذا الشباب المتحفز الذي ورد مناهل العلم بمصر وتسلح بسلاح المعرفة ، سيحمل عن جدارة عبء المستقبل وسيحقق الكثير من الغايات ، ويسير بالركب إلى حيث نريد ، ويريد كل مصلح يتطلع إلى حياة تتحقق فيها العزة والسعادة والمساواة بين الجميع .

ما أن افتتح بيت الكويت حتى أخذ الكثيرون من رجال الكويت يقدون إلى مصر لزيارتها فيجدون من بيت الكويت كل ما من شأنه أن يسهل هذه الزيارة ومعرفة مصر معرفة صحيحة وتقديم كل مساعدة لهم في نجاح رحلتهم .

وهكذا استطاع البيت أن يسهم في تنمية الروابط بين هاذين القطرين من ناحية الآباء كما استطاع توثيقها من ناحية الأبناء . وهل يستطيع أحد أن ينكر ما لهذا التعارف الوثيق من نتائج طيبة لأبناء أمة واحدة ؟

وإن من دواعي الفخر لبيت الكويت أن استطاع القيام بكل ما كلف به من الدوائر الحكومية في الكويت وبالأخص دائرة المعارف ، في تزويدها بما تحتاج إليه من مصر من كتب وغيرها . كما استطاع أن يسهل للبعثات العلمية التي تقصد الكويت للاسهام في نهضتها الحالية ، وسائل السفر إلى هناك ، وأصبح معتمداً من السلطات المصرية ، كمرکز للكويت مختص بجميع شئونها الثقافية . والبيت لا يحجم في جميع المناسبات عن أداء كل

واندفعت همته من جديد تحقق وتدقق في هذا المجال . ولم تمض مدة حتى أخرج كتابه الذي سماه : دليل المختار في علم البحار ، . . هذا الكتاب الذي ما يزال ولن يزال المرجع لكل ربان عربي يبحر البحر بسفينته يتكلم أفرادها بلغة الضاد . وإذا نحن في معرض الحديث عن هذا الكتاب ، فإننا نهيب بأبناء الراحل ، أن يعيدوا طبع كتابه هذا ويحسنوه لغة وشرحاً واستدراكاً ، فإن طبعته قد نفدت منذ زمن ، وأصبح الربانة يطلبونه بأى ثمن كان ، وإذا لم يريدوا طبعه على نفقتهم — وهم أغنيا والحمد لله — فليقدموه للناسخين ، وبذلك يسدون منفعة للناس ويحيون تراث والدهم الكريم .

وما يذكر أن بعض الحكومات المجاورة قد اهتمت بهذا الكتاب واستعانت به في شئونها البحرية . كما إن للترجم كتاباً آخر خاصاً بالغوص والمغاصات ، وهو دليل لمواقع اللؤلؤ في الخليج .

نعود فنذكر ما اتصف به هذا الربان الأديب : كان عذب الحديث ، خفيف الظل ، لا يمل مجلسه ، يسبيك بحديثه الطلي ، ونسكاته ودعاباته ، وكان يكره الثقلان والعباسين ، ويسم للدهر إذا قطب ، وقد اشتهر بالحمية والمروءة ، وموقفه الشهير في حادثة قتل سيف بن سيف الرومي التي أوردتها الأستاذ الرشيد في تاريخه معروف ، فهو الذي أهاب بعم القتيل المرحوم شملان آل سيف أن يسفر سفينته لطلب الجناة . وكان هو يتزعم من استقلها . كما دفع أخاه المرحوم عبد العزيز للذهاب بالبأساخرة إلى بندر لنجة حيث قبض على الجناة هناك بعد معركة حاولوا أثناءها الهرب . فبحمية هذا الغيور وأعوانه والوقفة التي وقفها أسد الكويت الشيخ مبارك حينذاك ، استطاعوا أن يأتوا بالقتلة مكبلين مع أنهم ليسوا كويتيين؛ فلم يذهب دم القتيل هدرأ .

وقص لي أحد الإخوان مثالا من مروءته قال: كنت صديقا لأسرة غنية . وافثق أن ابن كبير الأسرة أراد السفر . ورأى أن يرفق لاني كنت عاطلا عن العمل . فطلب مني أن أقوم بعمله التجاري أثناء سفره . فقممت بذلك إلى أن رجع من سفره . فاستلم عمله . ولم أطلب

منه أجراً حياً مني ونلصداقة التي تربطني بالأسرة ومضى وقت على ذلك إلى أن طلب مني المرحوم عيسى بن قطامي أن أساعده مراقبا على سفينته التي يبينها على الشاطئ . والتي سماها : الحضان ، . وبعد فترة قال لي : لا أعلم كم أعطاك فلان لمدة عملك في محلهم ؟ . قلت : إني لم أطلب منهم شيئا ، وهم كذلك لم يدفعوا لي شيئا . فسكت كالضمر أمراً في نفسه فقد تحقق عنده أن خجلي بمنعني أن أطلب منهم شيئا لقاء عملي وأنهم نسوا الأمر لكثرة أعمالهم . ومضى يوم وإذا بي أستلم من تلك الأسرة مبلغاً من المال مع اعتذار رقيق . وقد تبين لي فيما بعد أن الفقيد اتصل برب الأسرة قائلاً : إني أريد أن أعطى فلانا شيئا مقابل عمله عندي فكم أعطيتموه عندما عمل لديكم ؟ . فقال الرجل : لا علم لي بذلك . فإن هذا الأمر عند ابني . وجاه الإبن . فلما سأله والده قال : لقد سهى على ولم أعطه شيئا . . وبهذا الأسلوب استطاع أن يخرج حقا كاد ان يضع بين النسيان والحياء .

ويطول بنا البحث لو تتبعنا ماجرياته وأحواله ، على أننا نود أن نطلع القراء على ناحية فيه لا يستطيع أحد أن يجاريه بها ؛ تلك هي ملكة التقليد في اللهجات المختلفة . فإن من يسمعه يحاكي إحدى اللهجات العربية حين ينفرد بإخوانه الذين تزول بينه وبينهم الكلفة . يحزم بأنه مواطن عريق في كل بلد من هذه البلاد . ويسرنا أن نورد مثالا لتلك موالياء نشر جزءاً منه في صفحة من هذا العدد . ولدترجم اليد الطولى في عمل التواريخ بأعجاز الآيات أو بكلمات مختصرة . وقد كان لصوغ هذه التواريخ شأن في ذلك الزمان .

وإننا انتسامل اليوم ؛ لو أن مثل هذا النابغة نشأ في بيئة أكثر غنى بوسائل الحياة الأدبية والعلمية . وفي زمن أتاحت له فيه الفرصة للدراسة العلمية الحقة . ترى أى تراث يترك . وأى أثر لا يمحي يبق له على الزمان . . أظنه أدرك ما انتسامل عنه عندما نظم أبياته التي يقول فيها:

لو علموني هلى في مصر أو بيروت

لاصنع عجائب لهم تذكر قبل ما موت

وافته المنية بمسقط (عاصمة عمان) سنة ١٣٤٧ هـ .

سرفاوى